مجموعة أمهات المؤمنين

بإشراف محمد أحمد برانق

١٥

جويرية وريحانة



دار المعارف بمصر

مجموعة أمهات المؤمنين

بإشراف مُحمّد أحمد برانق
المفتش الأول بوزارة التربية والتعليم بمصر (سابقا)

١٥

جويرية وريحانة

الطبعة الثالثة



دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

جُوَيْرِيَةُ

١

يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَنَا بِنْتُ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي ضِرَارٍ، سَيِّدِ قَوْمِهِ، وَقَدْ أَصَابَنِي مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْكَ، فَوَقَعْتُ فِي السَّهْمِ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ، فَكَاتَبْتُهُ عَلَى نَفْسِي، فَجِئْتُكَ أَسْتَعِينُكَ عَلَى أَمْرِي.

هٰذَا مَا قَالَتْهُ بَرَّةُ بِنْتُ الْحَارِثِ لِرَسُولِ اللهِ. فَمَنْ هِيَ بَرَّةُ؟ وَمَنْ هُوَ أَبُوهَا؟ وَمَا الَّذِي أَصَابَهَا مِنَ الْبَلَاءِ حَتَّى وَقَعَتْ فِي نَصِيبِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ، فَكَاتَبَتْهُ عَلَى نَفْسِهَا، وَجَاءَتْ تَسْتَعِينُ بِالرَّسُولِ عَلَى أَمْرِهَا؟

كَانَتْ بَرَّةُ بِنْتَ سَيِّدِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ، وَهُمْ فَرْعٌ مِنْ قَبِيلَةِ خُزَاعَةَ، وَتَقَعُ مَنَازِلُهُمْ عَلَى مَسَافَةٍ غَيْرِ بَعِيدَةٍ مِنَ الْمَدِينَةِ.

وَكَانَتْ بَرَّةُ فَتَاةً حُلْوَةً مُلَّاحَةً، شَدِيدَةَ الْحَلَاوَةِ، لَا يَرَاهَا أَحَدٌ إِلَّا أَخَذَتْ بِنَفْسِهِ، وَنَالَتْ إِعْجَابَهُ، وَكَانَتْ زَوْجًا لِابْنِ عَمٍّ لَهَا، هُوَ مُسَافِعُ بْنُ صَفْوَانَ؛ وَكَانَتْ بَرَّةُ لِمَا لَهَا مِنْ جَمَالٍ

وَمَلَاحَةٍ ، وَلِمَا لِأَبِيهَا فِي قَوْمِهِ مِنْ شَرَفٍ وَعِزَّةٍ وَسِيَادَةٍ — تَتَمَتَّعُ بِمَكَانَةٍ مَرْمُوقَةٍ ، وَتَنَالُ مِنْ بَيْنِ أَتْرَابِهَا مَنْزِلَةً مِنَ التَّرَفِ وَالرَّفَاهَةِ تُحْسَدُ مِنْ أَجْلِهَا .

وَبَلَغَ بَنِي الْمُصْطَلِقِ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ رَسُولِ اللهِ ، وَمِقْدَارِ مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ دَعْوَتُهُ لِلْإِسْلَامِ مِنَ انْتِشَارٍ عَمَّ الْكَثِيرَ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ . فَهَا هُوَ ذَا مُنْذُ هِجْرَتِهِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُوَ يُحَقِّقُ لِلْإِسْلَامِ نَصْرًا كَبِيرًا ؛ فَهُوَ فِي مَدَى سِتِّ سَنَوَاتٍ كَانَ نُورُهُ يُضِيءُ الْجَزِيرَةَ كُلَّهَا ، فَدَخَلَ فِي دَعْوَتِهِ الْكَثِيرُونَ مِنَ الْعَرَبِ ، وَحَالَفَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْقَبَائِلِ .

وَهَا هُوَ ذَا قَدِ انْتَصَرَ عَلَى أَعْدَائِهِ مِنْ قُرَيْشٍ وَحُلَفَائِهِمْ فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ ، فَانْصَرَفُوا عَنِ الْمَدِينَةِ مَخْذُولِينَ مَدْحُورِينَ بَعْدَ أَنْ حَاصَرُوهَا بِجُمُوعِهِمْ مَا يَقْرُبُ مِنَ الثَّلَاثِينَ يَوْمًا .

وَهَا هُوَ ذَا يَسْتَأْصِلُ شَأْفَةَ الْيَهُودِ الَّذِينَ حَالَفُوهُ وَعَاهَدُوهُ حِينَ مَقْدَمِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، ثُمَّ نَقَضُوا حِلْفَهُمْ ، وَأَرَادُوا أَنْ يَغْدِرُوا شَرَّ غَدْرٍ .

وَهَا هُوَ ذَا يُرْسِلُ بِجُيُوشِهِ لِتَأْدِيبِ الْعُصَاةِ مِنَ الْقَبَائِلِ الَّذِينَ حَالَفُوهُ ثُمَّ غَدَرُوا بِهِ ، وَيَبْعَثُ بِرُسُلِهِ لِتَأْلِيفِ النَّاسِ ، وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى الْإِسْلَامِ .

وَفَكَّرَ الْحَارِثُ بْنُ أَبِي ضِرَارٍ — سَيِّدُ بَنِي الْمُصْطَلِقِ — فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ ، وَفِي أَمْرِ انْتِشَارِ دَعْوَتِهِ ، وَفِي مَدَى خَطَرِ انْتِشَارِ هٰـــذِهِ الدَّعْوَةِ عَلَى قَبِيلَتِهِ ، وَعَلَى أَمْثَالِهَا مِنْ قَبَائِلِ الْمُشْرِكِينَ ، فَرَأَى أَنْ يَسْعَى إِلَى تَحْرِيضِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَجَمْعِ جُمُوعِهِمْ ، لِيَخْرُجَ بِهِمْ إِلَى مُحَارَبَةِ مُحَمَّدٍ عَلَى غِرَّةٍ عَسَى أَنْ يَنَالَ مِنْهُ مَنَالًا .

وَبَلَغَ النَّبِيَّ بِالْمَدِينَةِ مَا بَيَّتَ بَنُو الْمُصْطَلِقِ ، فَقَرَّرَ أَنْ يُسَارِعَ هُوَ إِلَى غَزْوِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوهُ .

فَأَعَدَّ جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَجَلٍ ، وَخَرَجَ عَلَى رَأْسِهِ يَقْصِدُ مَنَازِلَ بَنِي الْمُصْطَلَقِ تَصْحَبُهُ مِنْ نِسَائِهِ زَوْجَتُهُ عَائِشَةُ .

وَبَاغَتَتْ جُمُوعُ مُحَمَّدٍ جُمُوعَ بَنِي الْمُصْطَلِقِ قَبْلَ أَنْ تُتِمَّ اسْتِعْدَادِهَا ، وَتَأْخُذَ أُهْبَتَهَا ، فَكَانَ أَنْ تَفَرَّقَتْ جُمُوعُ الْعَرَبِ

عَنْ بَنِي الْمُصْطَلَقِ هارِبَةً ، تارِكَةً إِيَّاها هَدَفاً سَهْلًا وَمَنالًا هَيِّناً لِجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ .

وَالْتَقَى الْجَمْعانِ بِالْقُرْبِ مِنْ ماءٍ لِبَنِي الْمُصْطَلِقِ ، اسْمُهُ الْمُرَيْسِيعُ ، فَلَمْ يَدُمِ الْقِتالُ بَيْنَهُما طَوِيلًا ، فَسُرْعانَ ما هُزِمَتْ بَنُو الْمُصْطَلِقِ ، وَوَقَعَتْ إِبِلُهُمْ وَماشِيَتُهُمْ وَأَبْناؤُهُمْ وَنِساؤُهُمْ فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ .

وَكانَ فِي قَتْلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ مُسافِعُ بْنُ صَفْوانَ ، وَكانَتْ فِي الْأَسْرَى الَّذِينَ أَسَرَهُمُ الْمُسْلِمُونَ زَوْجَتُهُ : بَرَّةُ بِنْتُ الْحارِثِ ابْنِ أَبِي ضِرارٍ . وَسُرَّ الْمُسْلِمُونَ بِانْتِصارِهِمْ ، وَفَرِحُوا بِما أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفَوْزِ ، وَحَطُّوا بِجِوارِ ماءِ الْمُرَيْسِيعِ يَسْتَقُونَ وَيَسْتَرِيحُونَ . وَتَزاحَمَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْماءِ ، فَكانَ مِنْ ذٰلِكَ أَنْ تَشاحَنَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصارِ مَعَ رَجُلٍ مِنَ الْمُهاجِرِينَ ، وَكانَ أَنْ تَفَوَّهَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ، رَأْسُ الْمُنافِقِينَ فِي الْمَدِينَةِ بِأَلْفاظٍ ضِدَّ الْمُهاجِرِينَ ، خَشِيَ مَعَها النَّبِيُّ أَنْ تَسْتَعِرَ نارُ الْفِتْنَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَأَمَرَ بِالِارْتِحالِ سَرِيعاً إِلَى الْمَدِينَةِ .

وَارْتَحَلَ الْمُسْلِمُونَ عَنْ مَنَازِلِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ ، فِي وَقْتٍ حَرٍّ وَقَيْظٍ لَمْ يَأْلَفِ النَّاسُ مِنَ النَّبِيِّ الرَّحِيلَ فِيه ، وَقَدْ حَمَلُوا مَعَهُمْ مَا غَنِمُوا مِنْ مَتَاعٍ وَأَسْرَى ، وَسَارُوا مُسْرِعِينَ كَأَمْرِ الرَّسُولِ ، لَا يَحُطُّونَ إِلَّا لِنَوْمٍ يَسِيرٍ ، أَوْ لِضَرُورَةٍ قُصْوَى .

وَبَيْنَ نِسَاءِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ الْأَسِيرَاتِ اللَّاتِي أَخَذَهُنَّ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ ، وَرَحَّلَهُنَّ مَعَهُ — بَرَّةُ بِنْتُ سَيِّدِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ ، وَقَدِ اسْتَبَدَّ بِهَا الْحُزْنُ وَالْهَمُّ لِمَا تَتَوَقَّعُ مِنْ ذُلِّ الْأَسْرِ ، وَتَرْكِ الْأَهْلِ ، وَأَخَذَهَا التَّفْكِيرُ فِيمَا يَنْتَظِرُهَا مِنْ مَصِيرٍ مَجْهُولٍ .

وَشَارَفَ الرَّكْبُ الْمَدِينَةَ وَقَدْ نَالَ مِنْ أَفْرَادِهِ التَّعَبُ ، وَأَحَسُّوا الْإِرْهَاقَ ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ أَنْ يَحُطُّوا لِلنَّوْمِ وَالرَّاحَةِ ؛ وَمَعَ غُبْشَةِ الْفَجْرِ اسْتَأْنَفَ الْجَيْشُ الْمَسِيرَ حَتَّى دَخَلَ الْمَدِينَةَ ، وَانْتَظَرَ النَّاسُ أَمْرَ النَّبِيِّ فِي تَقْسِيمِ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ غَنَائِمِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَسَبَايَاهُمْ ، وَلَكِنَّ النَّبِيَّ كَانَ فِي شَاغِلٍ عَنْ ذَلِكَ : فَإِنَّ زَوْجَتَهُ عَائِشَةَ الَّتِي كَانَتْ تَصْحَبُهُ فِي سَفْرَتِهِ هَذِهِ ، لَمْ تَكُنْ بِهَوْدَجِهَا حِينَمَا أُنْزِلَ

الهَوْدَجُ أَمَامَ دَارِهاَ وَدعِيَتْ إِلَى النزولِ .

وَقلِقَ النَّبِيُّ ، وَشُغِلَ بَالُهُ عَلَى زَوْجَتِهِ ، وَتَسَاءلَ مَنْ عَلِمَ مِنَ النَّاسِ بِأَمْرِ غِيَابِ عَائِشَةَ :

أَيْنَ زَوْجَةُ الرَّسُولِ ؟ !

وَلَمْ يَدُمْ هٰذَا الْقَلَقُ طَوِيلًا ، فَسُرْعَانَ مَا شُوهِدَتْ عَائِشَةُ تَدْخُلُ الْمَدِينَةَ ، وَقَدِ امْتَطَتْ جَمَلَ صَفْوَانَ بْنِ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيِّ ، يَقُودُهُ لَهاَ صَاحِبُهُ .

وَبَيَّنَتْ عائِشَةُ لِلرَّسُولِ مَا عاقَهَا عَنْ مُصاحَبَةِ الْجَيْشِ ، فَقَدْ غادَرَتْ مُعَسْكَرَ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلُهُ نِيَامٌ لِقَضَاءِ حَاجَةٍ لهَاَ ، فَلَمَّا قَضَتْهَا وَكَرَّتْ رَاجِعَةً ، اِفْتَقَدَتْ عِقْدَهاَ فَلَمْ تَجِدْهُ ، فَعَادَتْ تَبْحَثُ عَنْهُ حَتى إِذَا مَا وَجَدَتْهُ وَعَادَتْ إِلَى الْمُعَسْكَرِ ، وَجَدَتِ الْقَوْمَ قَدِ ارْتَحَلُوا ، وَحَمَلُوا هَوْدَجَها مَعَهُمْ دُونَ أَنْ يَفْطِنُوا إِلَى أَنَّهَا لَيْسَتْ بِدَاخِلِهِ — ذَلِكَ لِأَنَّ عائِشَةَ كَانَتْ نَحِيفَةً خَفِيفَةَ الْحِمْلِ — وَبَيْنَماَ هِيَ بِالْمَكانِ الَّذِي كَانَ يَنْزِلُ فِيهِ الْمُعَسْكَرُ تَنْتَظِرُ عَوْدَةَ الْبَاحِثِينَ عَنْهاَ ؛ إِذْ بِصَفْوَانَ بْنِ الْمُعَطَّلِ يَمُرُّ بِهاَ —

وَكَانَ قَدْ تَأَخَّرَ عَنْ مُصَاحَبَةِ الْجَيْشِ فِي أَمْرٍ لَهُ — فَعَرَفَهَا، وَحَمَلَهَا عَلَى جَمَلِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ.

وَإِذِ اطْمَأَنَّ الرَّسُولُ عَلَى عَوْدَةِ زَوْجَتِهِ، وَحَمِدَ اللهَ أَنْ قَيَّضَ لَهَا صَفْوَانَ لِيَعُودَ بِهَا — أَقْبَلَ يُقَسِّمُ مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ.

وَفَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بِمَا قُسِّمَ عَلَيْهِمْ، وَانْصَرَفَ كُلٌّ مِنْهُمْ يُدَبِّرُ أَمْرَ مَا أَصَابَ مِنْ نِعَمٍ.

وَانْصَرَفَ النَّبِيُّ إِلَى بَيْتِ عَائِشَةَ، فَرِحًا لِفَرَحِ الْمُسْلِمِينَ، مُطْمَئِنَّ الْقَلْبِ عَلَى انْصِرَافِ أَذْهَانِ النَّاسِ عَنِ الْفِتْنَةِ الَّتِي كَادَ أَنْ يُثِيرَهَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ.

وَفِي هَذِهِ الآوِنَةِ الَّتِي كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَنْعَمُونَ فِيهَا بِالسُّرُورِ وَالْفَرَحِ، وَيَرْكَنُ فِيهَا النَّبِيُّ إِلَى بَيْتِ عَائِشَةَ يَسْتَجِمُّ مِمَّا تَكَبَّدَ هُوَ وَالْمُسْلِمُونَ فِي غَزْوَتِهِمْ مِنَ التَّعَبِ — كَانَتْ بَرَّةُ بِنْتُ سَيِّدِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ تَسِيرُ إِلَى بَيْتِ النَّبِيِّ، وَكُلُّهَا أَمَلٌ فِي أَنْ يُفَرِّجَ كُرْبَتَهَا، وَيُزِيلَ غَمَّهَا، وَيُؤْنِسَ وَحْشَتَهَا هَذَا

الرَّجُلُ الَّذِى سَمِعَتْ بِكَرَمِهِ ، وَيُزِيلَ عَنْهَا مَا تَشْعُرُ مِنْ مَهَانَةِ السَّبْيِ وَذُلِّ الْأَسْرِ .

فَقَدْ وَقَعَتْ بَرَّةُ عِنْدَ تَقْسِيمِ السَّبَايَا فِى نَصِيبِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ ، فَأَرَادَتْ أَنْ تَتَخَلَّصَ مِنَ الْأَسْرِ وَأَنْ تَفْتَدِيَ نَفْسَهَا مِنْ ثَابِتٍ ، وَلَكِنَّ ثَابِتًا سَاوَمَهَا ، وَأَغْلَى عَلَيْهَا الْفِدَاءَ ، وَبَالَغَ فِيهِ مُبَالَغَةً شَدِيدَةً ، فَرَأَتْ أَنْ تَلْجَأَ إِلَى رَسُولِ الْمُسْلِمِينَ تَسْتَنْجِدُ بِهِ فِى مِحْنَتِهَا ، وَتَسْتَعْدِى بِهِ عَلَى ثَابِتٍ .

وَاسْتَأْذَنَتْ بَرَّةُ فِى الدُّخُولِ عَلَى الرَّسُولِ ، وَخَرَجَتْ عَائِشَةُ مِنْ دَارِهَا تَرَى : مَنْ تَكُونُ هَذِهِ الْمَرْأَةُ الْمُسْتَأْذِنَةُ عَلَى زَوْجِهَا .

وَرَأَتْ عَائِشَةُ أَمَامَهَا امْرَأَةً حُلْوَةً مُلَّاحَةً فَاتِنَةً ، تَأْخُذُ بِمَجَامِعِ الْقَلْبِ ، وَتَشْرَحُ الصَّدْرَ وَتُبْهِجُ النَّفْسَ ، فِى نَحْوِ الْعِشْرِينَ مِنْ عُمْرِهَا ، عَرَفَتْ فِيهَا عَائِشَةُ سَبِيَّةً مِنْ سَبَايَا بَنِى الْمُصْطَلِقِ جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ فِى أَمْرٍ مِنْ أُمُورِهَا .

وَكَرِهَتْ عَائِشَةُ بَرَّةَ لِأَوَّلِ مَا رَأَتْهَا ، وَكَرِهَتْ — وَقَدْ عَلِمَتْ

أَنَّهَا أَمَةٌ — أَنْ تَدْخُلَ عَلَى الرَّسُولِ فَيَرَى فِيهَا مَا رَأَتْ هِيَ (فَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ لَا يَنْظُرُ إِلَى الْمَرْأَةِ عِنْدَ مَا يُخَاطِبُهَا إِلَّا إِذَا كَانَتْ أَمَةً) ، وَلَـكِنْ . . كَيْفَ تَحُولُ عَائِشَةُ بَيْنَ سَبِيَّةٍ مِنَ السَّبَايَا ، وَبَيْنَ الِاسْتِئْذَانِ لَهَا فِي الدُّخُولِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ؟ !

وَدَخَلَتْ بَرَّةُ عَلَى الرَّسُولِ تَسْتَنْجِدُ بِهِ مِمَّا أَلَمَّ بِهَا ، وَتَسْتَعِينُهُ عَلَى أَمْرِهَا تَقُولُ :

يَا رَسُولَ اللهِ ، أَنَا بِنْتُ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي ضِرَارٍ ، سَيِّدِ قَوْمِهِ ؛ وَقَدْ أَصَابَنِي مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْكَ ، فَوَقَعْتُ فِي السَّهْمِ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ . فَكَاتَبْتُهُ عَلَى نَفْسِي ، فَجِئْتُكَ أَسْتَعِينُكَ عَلَى كِتَابَتِي .

وَنَظَرَ مُحَمَّدٌ إِلَى بَرَّةَ نَظْرَةَ عَطْفٍ وَإِشْفَاقٍ ، وَتَحَرَّكَ فِي نَفْسِهِ مَا عُرِفَ عَنْهُ مِنَ النَّجْدَةِ وَالنَّخْوَةِ وَالْكَرَمِ ، وَقَالَ لَهَا :

فَهَلْ لَكِ فِي خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ ؟

قَالَتْ : وَمَا هُوَ ؟

قَالَ أَقْضِي عَنْكِ كِتَابَتَكِ وَأَتَزَوَّجُكِ .

يَا لله .. هَذَا مَا لَمْ تَكُنْ بَرَّةُ تَتَوَقَّعُهُ ، أَوْ تَنْتَظِرُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ .. ! إِنَّهَا لَسَبِيَّةٌ أَسِيرَةٌ ، جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ تَسْتَعِينُهُ عَلَى أَمْرِهَا ، فَإِذَا بِالنَّبِيِّ يَعْرِضُ عَلَيْهَا الْحُرِّيَةَ وَالزَّوَاجَ وَالشَّرَفَ .. !

وَأَجَابَتْ بَرَّةُ الرَّسُولَ عَلَى مَا عَرَضَهُ عَلَيْهَا بِأَنْ قَالَتْ : نَعَمْ ، يَا رَسُولَ اللهِ .

قَالَ النَّبِيُّ : قَدْ فَعَلْتُ .

وَانْصَرَفَتْ بَرَّةُ مِنْ حَضْرَةِ الرَّسُولِ بِنَفْسٍ رَاضِيَةٍ مُطْمَئِنَّةٍ ، حَتَّى يَقْضِيَ رَسُولُ اللهِ عَنْهَا كِتَابَتَهَا ، وَيُؤَدِّيَ ثَمَنَ خَلَاصِهَا .

٢

لَمْ يَهْدَأْ بالُ لِلْحَارِثِ بْنِ أَبِي ضِرَارٍ سَيِّدِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ مُنْذ أَنْ أُخِذَتِ ابْنَتُهُ أَسِيرَةً ضِمْنَ الْأَسْرَى الَّذِينَ وَقَعُوا غَنِيمَةً فِى أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ ، فَرَاحَ يُفَكِّرُ وَيُدَبِّرُ وَيَعْمَلُ عَلَى فِدَائِهَا وَاسْتِرْدَادِهَا بِأَسْرَعِ مَا تُمَكِّنُهُ مِنْ ذَلِكَ ظُرُوفُهُ وَمَوَارِدُهُ .

وَعَلَى ذَلِكَ سَارَ الْحَارِثُ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَقَدْ سَاقَ مَعَهُ جَمْعًا مِنَ الْإِبِلِ لِفِدَاءِ ابْنَتِهِ بِهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

وَبَيْنَمَا هُوَ يَنْزِلُ بِمَكَانٍ اسْمُهُ الْعَقِيقُ لِلرَّاحَةِ قَبْلَ دُخُولِهِ الْمَدِينَةَ ، وَقَدْ سَرَحَتِ الْإِبِلُ الَّتِي جَاءَ بِهَا لِفِدَاءِ ابْنَتِهِ أَمَامَهُ ، أَعْجَبَهُ مِنْهَا بَعِيرَانِ ، وَدَّ لَوِ احْتَجَزَهُمَا وَأَبْقَاهُمَا لِنَفْسِهِ .

وَنَفَّذَ الْحَارِثُ مَا تَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ ، فَاحْتَجَزَ الْبَعِيرَيْنِ ، وَغَيَّبَهُمَا فِى شِعْبٍ مِنْ شِعَابِ الْعَقِيقِ ، ثُمَّ أَتَى الْمَدِينَةَ يَسُوقُ بَاقِيَ الْإِبِلِ مَعَهُ لِفِدَاءِ ابْنَتِهِ .

وَقَصَدَ الْحَارِثُ إِلَى النَّبِيِّ وَمَعَهُ الْإِبِلُ يَقُولُ :

يَا مُحَمَّدُ ، أَصَبْتُمُ ابْنَتِي ، وَهٰذَا فِدَاؤُهَا .

قَالَ الرَّسُولُ : فَأَيْنَ الْبَعِيرَانِ اللَّذَانِ غَيَّبْتَهُمَا بِالْعَقِيقِ ؟

فَدُهِشَ الْحَارِثُ أَشَدَّ الدَّهْشَةِ لِمَعْرِفَةِ الرَّسُولِ بِمَا كَانَ مِنْهُ ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ إِلَّا أَنْ يَهْتِفَ مُسْلِماً :

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَنَّكَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، فَوَاللهِ مَا اطَّلَعَ عَلَى ذٰلِكَ إِلَّا اللهُ !

وَهٰكَذَا أَسْلَمَ الْحَارِثُ بْنُ أَبِي ضِرَارٍ سَيِّدُ بَنِي الْمُصْطَلِقِ الَّذِي كَانَ يَجْمَعُ جُمُوعَ الْعَرَبِ لِمُحَارَبَةِ مُحَمَّدٍ وَالْقَضَاءِ عَلَيْهِ كَمَا أَسْلَمَ مَعَهُ ابْنَانِ لَهُ .

وَأَرْسَلَ الْحَارِثُ فَأَتَى بِالْبَعِيرَيْنِ لِيَفْدِيَ ابْنَتَهُ قَائِلًا لِلرَّسُولِ :

هٰذَا فِدَاءُ ابْنَتِي ، فَإِنَّ ابْنَتِي لَا يُسْبَى مِثْلُهَا !

فَقَالَ الرَّسُولُ : أَرَأَيْتَ إِنْ خَيَّرْنَاهَا ؟ أَلَيْسَ قَدْ أَحْسَنَّا ؟

أَجَابَ الْحَارِثُ : بَلَى .

وَسُئِلَتْ بَرَّةُ فِيمَا تَخْتَارُ ، فَقَالَتْ : اِخْتَرْتُ رَسُولَ اللهِ .

وَأَسْلَمَتْ بَرَّةُ ، وَأَعْتَقَهَا رَسُولُ اللهِ وَتَزَوَّجَهَا وَسَمَّاهَا « جُوَيْرِيَةَ » كَرَاهَةَ أَنْ يُقَالَ : خَرَجَ مِنْ عِنْدِ بَرَّةَ .

وَهٰكَذَا نَالَتْ جُوَيْرِيَةُ الشَّرَفَ الَّذِى لَمْ تَكُنْ تَظُنُّ أَنَّهُ سَيُوَاتِيهَا ، وَحَظِيَتْ بِنِعْمَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَعَلِمَ النَّاسُ بِمَا كَانَ مِنَ الرَّسُولِ لِجُوَيْرِيَةَ ، وَبِزَوَاجِهِ مِنْهَا ، فَقَالُوا عَمَّا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ أَسْرَى : أَصْهَارُ رَسُولِ اللهِ يُسْتَرَقُّونَ . . . ! ! فَهُمْ يَكْرَهُونَ أَنْ يَكُونَ أَصْهَارُ رَسُولِ اللهِ الْجُدُدُ ، أَهْلُ جُوَيْرِيَةَ — أَرِقَّاءَ ، وَلَمْ يَلْبَثُوا جَمِيعاً حَتَّى أَعْتَقُوا مَا أَصَابُوا مِنْ سَبْيِ بَنِى الْمُصْطَلِقِ ، فَبَلَغَ مَا أَعْتَقُوا مِائَةَ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْهُمْ ، حَتَّى قَالَتْ عَائِشَةُ عَنْ جُوَيْرِيَةَ فِى ذٰلِكَ :

لَا أَعْلَمُ امْرَأَةً أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَى قَوْمِهَا مِنْهَا .

وَهٰكَذَا أَيْضًا نَالَ بَنُو الْمُصْطَلِقِ الشَّرَفَ كُلَّ الشَّرَفِ إِذْ صَارُوا أَصْهَارًا لِرَسُولِ اللهِ ، وَحَظُوا — وَقَدْ أَسْلَمُوا — بِنِعْمَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَلَمْ تَسْتَطِعْ جُوَيْرِيَةُ أَنْ تَنْضَمَّ إِلَى الْحِزْبِ الرَّاجِحِ مِنْ

حِزْبَىْ زَوْجَاتِ الرَّسُولِ الَّذِى يَضُمُّ عَائِشَةَ الزَّوْجَةَ الْحَبِيبَةَ الْمُقَرَّبَةَ إِلَى قَلْبِ النَّبِى، فَانْضَمَّتْ إِلَى حِزْبِ زَوْجَاتِ الرَّسُولِ الَّذِى كَانَتْ تَتَرَأَّسُهُ أُمُّ سَلَمَةَ . إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ لِتَبْتَعِدَ عَنْ عَائِشَةَ إِذَا مَا حَزَبَ زَوْجَاتِ الرَّسُولِ أَمْرٌ مُشْتَرَكٌ، فَقَدْ صَاحَبَتْ عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ وَزَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ ، عِنْدَمَا ذَهَبْنَ إِلَى دَارِ حَارِثَةَ بْنِ النُّعْمَانِ مُتَنَقِّبَاتٍ مُتَخَفِّيَاتٍ لِمُشَاهَدَةِ ضَرَّتِهِنَّ الْجَدِيدَةَ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ الَّتِى تَزَوَّجَهَا النَّبِىُّ مِنَ السَّبَايَا اللَّاتِى غَنِمَهُنَّ الْمُسْلِمُونَ فِى غَزْوَتِهِمْ لِيَهُودِ خَيْبَرَ ، وَوَفَدَ بِهَا النَّبِىُّ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَأَنْزَلَهَا أَوَّلَ مَا أَنْزَلَ بِدَارِ حَارِثَةَ .

وَلَمَّا رَأَتْ عَائِشَةُ مَا عَلَيْهِ الزَّوْجَةُ الْجَدِيدَةُ مِنَ الْمَلَاحَةِ وَالْجَمَالِ ثَارَتْ غَيْرَتُهَا ، وَتَحَدَّثَتْ إِلَى صَاحِبَاتِهَا قَائِلَةً :

مَا أَرَى هَذِهِ الْجَارِيَةَ إِلَّا سَتَغْلِبُنَا عِنْدَ الرَّسُولِ ..!

سَارَعَتْ جُوَيْرِيَةُ تَقُولُ بِلَهْجَةِ الْخَبِيرِ الْوَاثِقِ تُطَمْئِنُ عَائِشَةَ ، وَتَحُدُّ مِنْ غَيْرَتِهَا ، وَتُهَوِّنُ عَلَيْهَا الْأَمْرَ :

كَلَّا ! إِنَّهَا مِنْ نِسَاءٍ قَلَّمَا يَحْظَيْنَ عِنْدَ الْأَزْوَاجِ .

وَعَاشَتْ جُوَيْرِيَةُ بِبَيْتِ الرَّسُولِ عِيشَةً رَضِيَّةً هَانِئَةً . وَكَانَتْ حَيَاتُهَا فِي حَيَاةِ الرَّسُولِ حَيَاةَ الْمُسْلِمَةِ الْخَاشِعَةِ الْمُتَعَبِّدَةِ ، حَتَّى لَكَانَ الرَّسُولُ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهَا عِنْدَ صَلاةِ الْفَجْرِ وَيَتْرُكُهَا وَهِيَ تُصَلِّي وَتَتَعَبَّدُ ، ثُمَّ يَمُرُّ عَلَيْهَا إِذَا مَا ارْتَفَعَ الضُّحَى فَيَجِدُهَا كَمَا تَرَكَهَا : تُصَلِّي وَتَتَعَبَّدُ . فَيَحْمَدُ الرَّسُولُ مِنْهَا ذَلِكَ وَيُقْبِلُ عَلَيْهَا يُرْشِدُهَا بِمَا تَسْتَطِيعُ بِهِ أَنْ تُشْبِعَ رَغْبَةَ نَفْسِهَا فِي الْعِبَادَةِ وَتَسْبِيحِ اللهِ .

وَهَكَذَا عَاشَتْ جُوَيْرِيَةُ مِنْ بَعْدِ حَيَاةِ الرَّسُولِ حَتَّى وَافَاهَا أَجَلُهَا بَعْدَ مُنْتَصَفِ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ لِلْهِجْرَةِ ، وَصَلَّى عَلَيْهَا مَرْوَانُ ابْنُ الْحَكَمِ وَالِي الْمَدِينَةِ مِنْ قِبَلِ مُعَاوِيَةَ ، وَدُفِنَتْ بِالْبَقِيعِ بِجِوَارِ مَنْ سَبَقَهَا مِنْ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ .

رَيْحَانَةُ

١

وَعَرَضَ النَّبِيُّ عَلَى رَيْحَانَةَ بِنْتِ زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو أَنْ يُعْتِقَهَا وَيَتَزَوَّجَهَا وَيَضْرِبَ عَلَيْهَا الْحِجَابَ ، فَأَبَتْ وَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ ، بَلْ تَتْرُكُنِي فِي مِلْكِكَ فَهُوَ أَخَفُّ عَلَيَّ وَعَلَيْكَ .

فَمَنْ هِيَ رَيْحَانَةُ بِنْتُ زَيْدٍ ؟! وَكَيْفَ آلَتْ إِلَى مِلْكِ رَسُولِ اللهِ ؟!

كَانَتْ رَيْحَانَةُ بِنْتُ زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو فَتَاةً جَمِيلَةً وَسِيمَةً مِنْ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ ، الَّذِينَ كَانُوا يُقِيمُونَ بِالْمَدِينَةِ إِلَى جِوَارِ يَهُودِ بَنِي قَيْنُقَاعَ وَبَنِي قُرَيْظَةَ وَقْتَمَا هَاجَرَ النَّبِيُّ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ .

وَإِلَى جِوَارِ هٰؤُلَاءِ الْيَهُودِ كَانَ يُقِيمُ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ ،

وَهُمُ الأَنْصَارُ الَّذِينَ نَاصَرُوا رَسُولَ اللهِ وَبَايَعُوهُ حِينَمَا خَذَلَهُ قَوْمُهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ .

وَلَمْ يَكُنْ جِوَارُ الْيَهُودِ لِلأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ فِي ذٰلِكَ الْحِينِ جِوَارَ مَحَبَّةٍ وَصَدَاقَةٍ وَتَآلُفٍ ، بَلْ كَانَ جِوَارًا يُرَجَّحُ فِيهِ جَانِبُ الْيَهُودِ عَلَى الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ ، وَيَظْهَرُ فِيهِ عُلُوُّ مَكَانَتِهِمْ بِالْمَدِينَةِ : فَهُمُ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ أَكْثَرَ مَزَارِعِهَا وَبَسَاتِينِهَا ، وَهُمُ الَّذِينَ يُسَيْطِرُونَ عَلَى التِّجَارَةِ ، وحركة الأَخْذِ والْعَطاءِ فِيهَا ، وَكَانَتْ غَايَتُهُمْ أَنْ يَظَلُّوا مُحْتَفِظِينَ بِهٰذِهِ الْمَكَانَةِ ، وَكَانَ رَأْيُهُمْ أَنْ يَعْمَلُوا عَلَى التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ حَتَّى يَظَلُّوا مُنْقَسِمِينَ مُتَفَرِّقِينَ ضُعَفَاءَ .

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ كَانُوا يَعْرِفُونَ هٰذِهِ الْغَايَةَ الَّتِي يَسْعَى إِلَيْهَا الْيَهُودُ وَيَشْعُرُونَ أَنَّهُمْ ضُعَفَاءُ إِلَى جَانِبِهِمْ — فَقَدْ كَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْكَفَّ عَنِ الْحَرْبِ الَّتِي تَنْشَبُ بَيْنَ جَمَاعَتَيْهِمَا ، وَلَا عَنِ الْقِتَالِ وَالْمُنَاوَشَةِ بَيْنَ بَعْضِهِمْ وَبَعْضٍ لِأَتْفَهِ الأَسْبَابِ .

وَكَانَ مِنْ أَسْبَابِ شُعُورِ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ بِالضَّعْفِ إِلَى جَانِبِ جِيرَانِهِمُ الْيَهُودِ — أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ وَعِلْمٍ ، وَكَانُوا يَعِيبُونَ عَلَى الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ عِبَادَتَهُمْ لِلْأَوْثَانِ ، وَيُهَدِّدُونَهُمْ بِقُرْبِ بَعْثِ نَبِيٍّ جَدِيدٍ يَدْعُو إِلَى دِينِهِمْ ، وَيَقْضِي وَإِيَّاهُمْ عَلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ، وَيَقُولُونَ لَهُمْ إِذَا اخْتَلَفُوا مَعَهُم .

إِنَّ نَبِيًّا مَبْعُوثًا الْآنَ قَدْ أَظَلَّ زَمَانُهُ نَتَّبِعُهُ فَنَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَمَ .

ثُمَّ كَانَ أَنْ خَرَجَ نَفَرٌ مِنَ الْخَزْرَجِ إِلَى مَكَّةَ يَبْغُونَ الْحَجَّ ، وَهُنَاكَ لَقِيَهُمْ مُحَمَّدٌ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ ، وَتَلَا عَلَيْهِمْ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ ، وَعَرَّفَهُمْ أَنَّهُ رَسُولٌ مِن عِنْدِ اللهِ .

وَدُهِشَ الرِّجَالُ ، وَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ مَأْخُوذِينَ ، وَقَدْ لَمَعَ فِي أَذْهَانِهِمْ مَا كَانَ جِيرَانُهُمُ الْيَهُودُ يُهَدِّدُونَهُمْ بِهِ عَنْ مَبْعَثِ نَبِيٍّ يَقْضِي هُوَ وَالْيَهُودُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ

فقَالُوا : وَاللهِ إِنَّهُ النَّبِيُّ الَّذِي تَوَعَّدَتْنَا بِهِ يَهُودُ ! فَوَاللهِ لَا نَدَعُهَا تَسْبِقُنَا إِلَيْهِ .

وَآمَنَ هٰذَا النَّفَرُ مِنَ الْخَزْرَجِ بِرَسُولِ اللهِ ، وَعَادُوا إِلَى قَوْمِهِمْ يُعَرِّفُونَهُمْ بِإِيمَانِهِمْ لِمُحَمَّدٍ ، فَلَاقوا عِنْدَهُمْ قُلُوبًا مُتَفَتِّحَةً لِتَقَبُّلِ الدِّينِ الْجَدِيدِ .

فَلَمَّا كَانَتْ أَشْهُرُ الْحَجِّ مِنَ الْعَامِ التَّالِي غَادَرَ الْمَدِينَةَ إِلَى مَكَّةَ وَفْدٌ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ ، فَأَعْلَنُوا إِلَى مُحَمَّدٍ إِسْلَامَهُمْ لَهُ وَإِيمَانَهُمْ بِهِ .

وَانْتَشَرَ الْإِسْلَامُ بَعْدَ ذَلِكَ بِالْمَدِينَةِ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ الَّذِينَ مَالَتْ قُلُوبُهُمْ إِلَى شَدِّ أَزْرِ مُحَمَّدٍ وَنُصْرَتِهِ . وَعَلَى ذَلِكَ سَارَ وَفْدٌ مِنْهُمْ إِلَى مَكَّةَ ، وَهُنَاكَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا سِرًّا مِنْ قَوْمِهِ قُرَيْشٍ ، الَّذِينَ كَانُوا يُكَذِّبُونَهُ وَيَضْطَهِدُونَهُ ، وَيُؤْذُونَهُ هُوَ وَأَتْبَاعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

وَهَاجَرَ مُحَمَّدٌ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ . . تَارِكًا قَوْمَه . . إِلَى الْأَنْصَارِ الَّذِينَ أَيَّدُوهُ وَنَصَرُوهُ .

وَاسْتَقْبَلَ الأَنْصَارُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ رَسُولَ اللهِ بِالْفَرَحِ وَالتَّرْحِيبِ ، وَأَنْزَلُوا الْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَصْحَابِ الرَّسُولِ بِدِيَارِهِمْ عَلَى سَعَةٍ ، وَقَاسَمُوهُمْ أَمْوَالَهُمْ ، وَأَشْرَكُوهُمْ فِي مَتَاعِهِمْ

وَكَذَلِكَ اسْتَقْبَلَ الْيَهُودُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ رَسُولَ اللهِ بِالْفَرَحِ وَالتَّرْحِيبِ ، وَهُمْ يَطْمَعُونَ أَنْ يَضُمُّوهُ إِلَى صُفُوفِهِمْ يَدْعُو لِدِينِهِمْ ، وَيَتَّبِعُ تَعَالِيمَهُمْ .

وَعَاهَدَ مُحَمَّدٌ الْيَهُودَ وَوَادَعَهُمْ ، وَأَمَّنَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، وَكَتَبَ لَهُمُ الْمُحَالَفَاتِ وَالْمُعَاهَدَاتِ ، وَتَقَرَّبَ مِنْهُمْ ، وَجَامَلَ رُؤَسَاءَهُمْ حَتَّى صَامَ يَوْمَ صَوْمِهِمْ ، ثُمَّ انْصَرَفَ يَدْعُو لِدِينِ اللهِ ، وَيَعْمَلُ عَلَى نُصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ .

وَلَمْ يَرْضَ يَهُودُ الْمَدِينَةِ عَلَى ذَلِكَ !

فَقَدْ تَيَقَّنَ لِيَهُودِ الْمَدِينَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا مَا هُوَ إِلَّا النَّبِيُّ الذِي عَرَّفَتْهُمْ بِهِ كُتُبُهُمْ ، وَحَدَّثَتْهُمْ عَنْهُ أَحْبَارُهُمْ ، وَتَأَكَّدَ لَدَيْهِمْ أَنَّهُ هُوَ الرَّسُولُ الَّذِي ظَلُّوا وَظَلَّ الْيَهُودُ كَافَّةً يَنْتَظِرُونَهُ وَيَتَرَقَّبُونَ مَبْعَثَهُ السِّنِينَ الطَّوِيلَةَ لِيَضُمُّوهُ إِلَيْهِمْ ، وَيَنْتَصِرُوا

بِهِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ فِي الدِّينِ مِنْ أَهْلِ النَّصْرَانِيَّةِ ، وَكَانُوا هُمْ يَهُودُ الْمَدِينَةِ يُهَدِّدُونَ بِهِ جِيرَانَهُمْ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ وَيُرْهِبُونَهُمْ بِقُرْبِ مَبْعَثِهِ . ثُمَّ يُبْعَثُ الرَّسُولُ الَّذِي انْتَظَرُوهُ وَتَرَقَّبُوهُ ، فَإِذَا هُوَ يَدْعُو إِلَى دِينٍ تَعَالِيمُهُ غَيْرُ تَعَالِيمِ دِينِهِمْ ، وَإِذَا الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ هُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُ . . ! وَإِذَا هُمُ الَّذِينَ يَشْتَدُّ سَاعِدُهُمْ بِهِ . . !

وَكَانَ هَذَا مَا لَا يَسْتَطِيعُ الْيَهُودُ السُّكُوتَ عَنْهُ ، وَالصَّبْرَ عَلَيْهِ ، فَقَدْ خَافَ الْيَهُودُ سُلْطَانَ مُحَمَّدٍ بِالْمَدِينَةِ مِنْ أَنْ يَذْهَبَ بِسُلْطَانِهِمْ ، وَخَشُوا الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ مُؤْمِنِينَ أَكْثَرَ مِمَّا خَشُوهُمْ مُشْرِكِينَ .

وَنَافَقَ الْيَهُودُ مُحَمَّدًا وَأَتْبَاعَهُ زَمَنًا ، يُظْهِرُونَ لَهُ وَلِلْمُسْلِمِينَ غَيْرَ مَا يُبَيِّتُونَ وَيُضْمِرُونَ ، ثُمَّ ابْتَدَءُوا يَكْشِفُونَ عَنْ قِنَاعِهِمْ ، وَيَخْلَعُونَ حِجَابَ رِيَائِهِمْ : فَنَاوَشُوا مُحَمَّدًا ، وَحَاجُّوهُ وَسَفَّهُوا رَأْيَهُ ، ثُمَّ كَذَّبُوهُ ، وَأَنْكَرُوا نُبُوَّتَهُ ، وَجَحَدُوا رِسَالَتَهُ .

وَسَارَ الْيَهُودُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ بِالْأَكَاذِيبِ وَالدَّسَائِسِ .

وَتَحَايَلُوا كُلَّ التَّحَايُلِ فِي خَلْقِ الْمُشْكِلاتِ وَإِثَارَةِ الْفِتَنِ . ثُمَّ كَانَ أَنْ كَثُرَ التَّشَابُكُ وَالتَّلاحُمُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ ، ثُمَّ كَانَ أَنْ نَقَضَ يَهُودُ بَنِي قَيْنُقَاعَ عَهْدَهُمْ مَعَ رَسُولِ اللّٰهِ وَالْمُسْلِمِينَ ، فَحَقَّ بِذَلِكَ لِلرَّسُولِ وَلِلْمُسْلِمِينَ قِتَالُهُمْ .

وَحَاصَرَ الْمُسْلِمُونَ يَهُودَ بَنِي قَيْنُقَاعَ حَتَّى اسْتَسْلَمَ الْيَهُودُ وَنَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِمْ ، فَقَضَى مُحَمَّدٌ فِيهِمْ بِأَنْ يُغَادِرُوا الْمَدِينَةَ فِي مُدَّةٍ أَقْصَاهَا ثَلاثَةُ أَيَّامٍ عَلَى أَلَّا يَأْخُذُوا مَعَهُمْ مِنْ مَتَاعِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ إِلَّا مَا يُسْمَحُ لَهُمْ بِأَخْذِهِ .

وَنَزَلَ بَنُو قَيْنُقَاعَ عَلَى حُكْمِ مُحَمَّدٍ وَغَادَرُوا الْمَدِينَةَ ، تَارِكِينَ أَكْثَرَ أَمْوَالِهِمْ مَتَاعاً لِلْمُسْلِمِينَ .

وَهَكَذَا طُرِدَ يَهُودُ بَنِي قَيْنُقَاعَ الَّذِينَ كَانُوا يُقِيمُونَ بِقَلْبِ الْمَدِينَةِ ، وَيَزْحَمُونَ أَسْوَاقَهَا ، وَمِنْ بَيْنِ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ كَانَتْ رَيْحَانَةُ بِنْتُ زَيْدِ بْنُ عَمْرٍو ، الْفَتَاةُ الْجَمِيلَةُ الْوَسِيمَةُ السَّاحِرَةُ . وَفِي يَهُودِ بَنِي قُرَيْظَةَ تَزَوَّجَتْ رَيْحَانَةُ مِنْ رَجُلٍ اسْمُهُ الْحَكَمُ .

وَأَحبَّ الْحَكَمُ امْرَأَتَهُ رَيْحَانَةَ ، وَأَعزَّهَا الإِعْزَازَ كُلَّهُ ، وَأَنْزَلَهَا مِنْ نَفْسِهِ مَنْزِلَةً عَالِيَةً ، وَقَابلَتْ رَيْحَانَةُ مَحبَّتَهُ بِمَحبَّةٍ مِثْلِهَا ، وَتفَانَتْ فِى الْعَمَلِ عَلَى مَرْضَاتِهِ وَالإِخْلَاصِ لَهُ .

وَعَاشَتْ رَيْحَانَةُ فِى يَهُودِ بَنِى قُرَيْظَةَ إِلَى جَانِبِ زَوْجِهَا عِيشَةً رَضِيَّةً هَانِئَةً ، حَتَّى بَعْدَ مَا غدرَ يَهُودُ بَنِى النَّضِيرِ بِمُحَمَّدٍ ، وَبَعْدَ مَا حَكَمَ فِيهِمْ مُحَمَّدٌ حُكْمَهُ الَّذِى يَقْضِى عَلَيْهِمْ بِمُغَادَرَةِ الْمَدِينَةِ ، وَبَعْدَ مَا ارْتَحَلُوا عَنْهَا إِلَى خَيْبَرَ وَأَطْرَافِ الشَّامِ ، مُخَلِّفِينَ مِنْ وَرَائِهِمْ مَغَانِمَ كَثِيرَةً لِلْمُسْلِمِينَ .

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ وَرَيْحَانَةُ إِلَى جَانِبِ زَوْجِهَا فِى يَهُودِ بَنِى قُرَيْظَةَ الَّذِينَ كَانُوا يُبْدُونَ الْوُدَّ لِمحَمَّدٍ ، وَيُظْهِرُونَ لَهُ رَغْبَتَهُمْ فِى مُسَاعَدَتِهِ وَالتَّعَاوُنِ مَعَهُ . حَتَّى جَاءَتِ الْأَخْبَارُ إِلَى بَنِى قُرَيْظَةَ تُعَرِّفُهُمْ أَنَّ إِخْوَانَهُمْ مِنْ بَنِى النَّضِيرِ لَمْ يَسْكُتُوا عَلَى مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنَّهُمْ يُحَرِّضُونَ أَهْلَ مَكَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَيُؤَلِّبُونَ قَبَائِلَ الْعَرَبِ عَلَى الْخُرُوجِ مَعَهُمْ لِمُحَارَبَةِ مُحَمَّدٍ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ لِمَنْ يَسْأَلُهُمْ عَنْ حَالِ بَنِى قُرَيْظَةَ

وَمَوْقِفِهَا بِالنِّسْبَةِ لِمُحَمَّدٍ :

أَقَامُوا بِالْمَدِينَةِ مَكْرًا بِمُحَمَّدٍ حَتَّى تَأْتُوهُمْ فَيَمِيلُوا مَعَكُمْ ثُمَّ جَاءَتِ الْأَخْبَارُ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ تَقُولُ إِنَّ بَنِي النَّضِيرِ قَدْ نَجَحُوا فِي جَمْعِ الْجُمُوعِ وَتَحْزِيبِ الْأَحْزَابِ لِمُحَارَبَةِ مُحَمَّدٍ، وَأَنَّ هَذِهِ الْجُمُوعَ وَهَذِهِ الْأَحْزَابَ فِي طَرِيقِهَا إِلَى الْمَدِينَةِ .

وَعَلِمَ بَنُو قُرَيْظَةَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ أَلَمُّوا بِمَا بَيَّتَتْ لَهُمْ جُمُوعُ الْعَرَبِ الَّتِي تَزْحَفُ نَحْوَ الْمَدِينَةِ وَأَنَّهُمْ يُعِدُّونَ الْعُدَّةَ لِمُوَاجَهَتِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ بِسَبِيلِ حَفْرِ خَنْدَقٍ يُحِيطُ بِالْمَدِينَةِ لِيَعُوقَ دُخُولَهُمْ إِلَيْهَا .

وَلَمَّا جَاءَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ يَطْلُبُونَ مِنْهُمْ أَنْ يُمِدُّوهُمْ بِالْأَدَوَاتِ اللَّازِمَةِ لِمُسَاعَدَتِهِمْ عَلَى حَفْرِ الْخَنْدَقِ لَمْ يَسَعْ بَنِي قُرَيْظَةَ لِمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ تَحَالُفٍ إِلَّا أَنْ يَمُدُّوهُمْ بِمَا طَلَبُوا . فَأَعْطَوْهُمْ مِنَ آلَاتِ الْحَفْرِ وَالْمِسَاحِ وَالْكَرَازِينَ وَالْمَكَاتِلِ مَا أَعَانَهُمْ عَلَى غَرَضِهِمْ .

وَبَقِيَتْ قُرَيْظَةُ تَنْتَظِرُ لِمَنْ يَكُونُ النَّصْرُ . . ! أَلِلْيَهُودِ

وَأَحْزَابِ الْعَرَبِ ، أَمْ لِمُحَمَّدٍ وَالْمُسْلِمِينَ ؟! وَلَمْ يَطُلْ بِبَنِي قُرَيْظَةَ الِانْتِظَارُ ، فَقَدْ جَاءَتْهُمُ الْأَخْبَارُ تُؤَكِّدُ ظُهُورَ عَلَامَاتِ تَفَكُّكِ الْأَحْزَابِ وَتُظْهِرُ لَهُمُ اسْتِيَاءَهُمْ ، وَتَذَمُّرَهُمْ مِنْ بَقَائِهِمْ مُحَاصِرِينَ لِلْخَنْدَقِ الَّذِي أَقَامَهُ الْمُسْلِمُونَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ فِي شِتَاءٍ بَارِدٍ قَارِسٍ .

ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ رَئِيسُ يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ ، وَالْمُحَرِّضُ الْأَوَّلُ عَلَى جَمْعِ جُمُوعِ الْأَحْزَابِ أَنْ جَاءَ إِلَى كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ صَاحِبِ عَقْدِ بَنِي قُرَيْظَةَ يُحَرِّضُهُ عَلَى الْغَدْرِ بِمُحَمَّدٍ .

وَخَشِيَ كَعْبٌ عَاقِبَةَ غَدْرِهِ بِمُحَمَّدٍ ، وَنَقْضِ حِلْفِهِ لِلْمُسْلِمِينَ — فَأَغْلَقَ بَابَهُ دُونَ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ ، وَرَفَضَ السَّمَاحَ لَهُ بِمُقَابَلَتِهِ ، وَلَكِنَّ حُيَيًّا مَا زَالَ بِكَعْبٍ يُمَنِّيهِ وَيَعِدُهُ حَتَّى قَالَ :

وَيْحَكَ يَا كَعْبُ ! جِئْتُكَ بِعِزِّ الدَّهْرِ ، وَبِبَحْرٍ طَامٍ ، جِئْتُكَ بِقُرَيْشٍ وَبِغَطَفَانَ مَعَ قَادَتِهَا وَسَادَتِهَا ، وَقَدْ عَاهَدُونِي وَعَاقَدُونِي عَلَى أَلَّا يَبْرَحُوا حَتَّى نَسْتَأْصِلَ مُحَمَّدًا وَمَنْ مَعَهُ ،

وَمَا زَالَ حُيَيٌّ بِكَعْبٍ يُحَرِّضُهُ عَلَى الْغَدْرِ بِمُحَمَّدٍ ، وَيَحُثُّهُ عَلَى نَقْضِ حِلْفِهِ لِلْمُسْلِمِينَ حَتَّى مَالَ كَعْبٌ إِلَى الْغَدْرِ ، وَاسْتَقَرَّ رَأْيُهُ عَلَى خِيَانَةِ الْمُسْلِمِينَ .

وَأَحَسَّ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ بِمَا نَوَتْ قُرَيْظَةُ مِنَ الْغَدْرِ ، وَأَحَسُّوا بِمَا بَيَّتَتْ لَهُمْ مِنْ خِيَانَةٍ فَبَعَثَ مُحَمَّدٌ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ بِنَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فِيهِمْ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ سَيِّدُ الْأَوْسِ ، وَسَعْدُ ابْنُ عُبَادَةَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ – يَسْتَطْلِعُونَ الْأَمْرَ

وَتَبَيَّنَ لِلرُّسُلِ خِيَانَةُ الْيَهُودِ وَغَدْرُهُمْ ؛ فَحَاوَلَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ، وَكَانَ حَلِيفاً لِبَنِي قُرَيْظَةَ أَنْ يَرْجِعَ بِبَنِي قُرَيْظَةَ عَمَّا بَيَّتُوا مِنْ غَدْرٍ ، وَيَرُدَّهُمْ عَمَّا أَضْمَرُوا مِنْ خِيَانَةٍ ، حَتَّى لَا يُصِيبَهُمْ مَا أَصَابَ يَهُودَ بَنِي قَيْنُقَاعَ وَبَنِي النَّضِيرِ نَتِيجَةَ نَقْضِهِمْ لِعَهْدِ رَسُولِ اللهِ ، وَلَٰكِنَّهُمْ صَدُّوهُ وَأَعْرَضُوا عَنْ كَلَامِهِ ، وَقَالَ رَئِيسُهُمْ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ :

مَنْ رَسُولُ اللهِ ! ! لَا عَهْدَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَلَا عَقْدٌ !

وَهٰكَذَا أَعْلَنَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ نَقْضَهَا لِعَهْدِ مُحَمَّدٍ ، وَجَاهَرَتْ

بخيانتها وعداوتها للمسلمين ، وبذلك حق لمحمد وللمسلمين محاربتها ومقاتلتها والاقتصاص منها .

وإذ ولت الأحزاب هاربة مدبرة من هول ما سلط عليها من زوابع ورياح وأمطار ، وإذ نصر الله المسلمين على جموع الأحزاب ، وطمأن قلوبهم ... نادى منادي محمد في أهل المدينة : من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة .

وحاصر المسلمون بني قريظة حتى ضاقت بهم السبل ، وحتى أشرفوا على الهلاك فأرسلوا إلى محمد يطلبون منه أن يأذن لهم بالرحيل إلى أذرعات بالشام ، كما أذن من قبل لبني قينقاع ولبني النضير .

وأبى محمد إلا أن يحكم في ذلك رجل من حلفائهم الأوس يرتضون حكمه ، فاختاروا وارتضوا حكم سعد بن معاذ . وجيء بسعد محمولا وكان قد أصيب بجرح بالغ من قبل أصابه في حرب الأحزاب مع المسلمين . وأخذ سعد المواثيق من المسلمين واليهود ، ثم حكم في بني قريظة ، وكان

حُكْمُهُ هُوَ قَتْلُ الرِّجَالِ ، وَسَبْيُ النِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ ، وَتَقْسِيمُ الْأَمْلَاكِ ، وَتَوْزِيعُ الْأَمْوَالِ .

فَلَمَّا سَمِعَ الرَّسُولُ حُكْمَ سَعْدٍ قَالَ :

حَكَمْتَ يَا سَعْدُ بِحُكْمِ اللهِ .

وَنُفِّذَ حُكْمُ سَعْدٍ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ : فَقُتِلَ رِجَالُهُمْ ، وَسُبِيَ نِسَاؤُهُمْ وَأَطْفَالُهُمْ وَلَمْ يُنْقَذْ مِنْ هٰذَا الْحُكْمِ إِلَّا نَفَرٌ قَلِيلٌ مِنْ بَنِي هُذَيْلٍ أَسْلَمُوا قَبْلَ أَنْ يَحْكُمَ سَعْدٌ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ بِحُكْمِهِ ، وَكَانَ فِيهِمْ ثَعْلَبَةُ بْنُ سَعْيَةَ وَإِخْوَتُهُ .

وَوُزِّعَتْ غَنَائِمُ بَنِي قُرَيْظَةَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَمِنْ بَيْنِ السَّبَايَا اللَّاتِي وَقَفْنَ يَنْتَظِرْنَ حُكْمَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِنَّ كَانَتْ رَيْحَانَةُ بِنْتُ زَيْدٍ تَبْكِي وَتَنْدُبُ زَوْجَهَا الْحَكَمَ وَهِيَ تُرَدِّدُ الْقَوْلَ : لَا أَسْتَخْلِفُ بَعْدَهُ أَبَدًا . . !

وَقُسِّمَتِ السَّبَايَا ، فَكَانَتْ رَيْحَانَةُ مِنْ نَصِيبِ رَسُولِ اللهِ .

وَرَأَى رَسُولُ اللهِ مَا بِرَيْحَانَةَ مِنْ هَمٍّ وَحُزْنٍ ، فَأَمَرَ بِإِرْسَالِهَا إِلَى دَارِ أُمِّ الْمُنْذِرِ بِنْتِ قَيْسٍ حَتَّى تَسْكُنَ وَتَهْدَأَ .

وَبَقِيَتْ رَيْحَانَةُ أَيَّامًا بِمَنْزِلِ أُمِّ الْمُنْذِرِ ، تَقُومُ أُمُّ الْمُنْذِرِ بِرِعَايَتِهَا وَالْعِنَايَةِ بِهَا حَتَّى هَدَأَتْ وَسَكَنَتْ .

وَإِذْ فَرَغَ رَسُولُ اللهِ مِنْ أَمْرِ مَا تَخَلَّفَ عَنْ مَوْقِعَةِ بَنِي قُرَيْظَةَ ، جَاءَ إِلَى بَيْتِ أُمِّ الْمُنْذِرِ يَزُورُ سُرِّيَّتَهُ رَيْحَانَةَ .

وَاسْتَحْيَتْ رَيْحَانَةُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ، وَلَجَأَتْ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ الدَّارِ تَسْتَتِرُ فِيهَا ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ بِاسْتِدْعَائِهَا . فَلَمَّا حَضَرَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ لَاطَفَهَا ، وَسَكَّنَ رَوْعَهَا ، وَعَرَضَ عَلَيْهَا الْإِسْلَامَ ، فَأَبَتْ أَنْ تُسْلِمَ ، وَأَصَرَّتْ عَلَى يَهُودِيَّتِهَا ، فَغَادَرَهَا النَّبِيُّ وَقَدْ تَأَلَّمَ لِسُلُوكِهَا ، وَوَجَدَتْ نَفْسُهُ لِعَدَمِ إِسْلَامِهَا .

وَعَرَفَ ثَعْلَبَةُ بْنُ سَعْيَةَ بِمَا كَانَ مِنْ رَيْحَانَةَ ، وَأَحَسَّ بِمَا فِي نَفْسِ رَسُولِ اللهِ ، فَانْطَلَقَ إِلَى رَيْحَانَةَ يَلُومُهَا عَلَى مَا كَانَ مِنْ مَوْقِفِهَا مِنْ مُحَمَّدٍ ، وَيُحَسِّنُ لَهَا الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ .

وَمَا زَالَ ثَعْلَبَةُ بِرَيْحَانَةَ يَحُثُّهَا عَلَى الْإِسْلَامِ وَهُوَ يَقُولُ لَهَا : اِسْلَمِي .. يَصْطَفِيكِ اللهُ وَرَسُولُهُ !

حَتَّى اُسْتَجَابَتْ نَفْسُهَا لِمَا دُعِيَتْ إِلَيْهِ ، وَمَالَ قَلْبُهَا ، وَتَفَتَّحَتْ رُوحُهَا لِلْإِسْلَامِ .

وَبَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ يَوْمًا بِمَجْلِسٍ لَهُ مَعَ أَصْحَابِهِ إِذْ سَمِعَ وَقْعَ نَعْلَيْنِ خَلْفَهُ ، فَقَالَ :

إِنَّ هَاتَيْنِ لَنَعْلَا ثَعْلَبَةَ بْنِ سَعْيَةَ يُبَشِّرُنِي بِإِسْلَامِ رَيْحَانَة .

وَمَا أَتَمَّ رَسُولُ اللهِ قَوْلَهُ حَتَّى كَانَ ثَعْلَبَةُ يُبَشِّرُهُ قَائِلاً :

يَا رَسُولَ اللهِ ، قَدْ أَسْلَمَتْ رَيْحَانَة !

فَسُرَّ الرَّسُولُ لِذٰلِكَ أَشَدَّ السُّرُورِ .

وَإِذْ أَسْلَمَتْ رَيْحَانَةُ عَرَضَ رَسُولُ اللهِ عَلَيْهَا أَنْ يُعْتِقَهَا وَيَتَزَوَّجَهَا ، وَيَضْرِبَ عَلَيْهَا الْحِجَابَ ، فَأَبَتْ ، وَقَالَتْ : يَارَسُولَ اللهِ ، بَلْ تَتْرُكُنِي فِي مِلْكِكَ ، فَهُوَ أَخَفُّ عَلَيَّ وَعَلَيْكَ !

وَبَقِيَتْ رَيْحَانَةُ فِي مِلْكِ رَسُولِ اللهِ يَتَرَدَّدُ عَلَيْهَا بَيْنَ الْحِينِ وَالْحِينِ ، وَقَدْ نَزَلَتْ مِنْ نَفْسِهِ أَحْسَنَ مَنْزِلَةٍ حَتَّى مَاتَتْ عَقِبَ رُجُوعِهِ مِنْ حَجَّةِ الْوَدَاعِ بِقَلِيلٍ ، فَدَفَنَهَا إِلَى جِوَارِ زَوْجَتِهِ زَيْنَبَ بِنْتِ خُزَيْمَةَ بِالْبَقِيعِ .

مجموعة أمهات المؤمنين

نصور للقارئ فى هذه المجموعة حياة كريمات النساء ، وأعلاهن درجة فى العفة والكمال ، وأشدهن ورعاً وتديناً ، وأقربهن إلى الله ؛ هن أمهات المؤمنين ، زوجات الرسول الكريم . ونصور الحقائق الصحيحة التى يجب أن يعرفها كل مسلم ومسلمة ، حتى يتخذوا مما كان يجرى بين النبى وزوجاته هادياً لهم وإماماً . فهو خير زوج : يعطى الزوجة حقها فى حريتها ومالها وفى صلتها الطيبة بأهلها ، وبجيرانها . وهن خير زوجات : يعرفن للزوج حقه ، ويؤدين ما له عليهن من واجبات . ومن هذه المجموعة نتعلم كيف نعالج ما قد يعرض أحياناً من المشكلات التى تكون بين المرء وزوجه على أساس من التسامح الكريم والمجاملة الطيبة الرقيقة .

١ – خديجة الطاهرة
٢ – خديجة الزوجة
٣ – خديجة سيدة النساء
٤ – سودة
٥ – عائشة الصبية
٦ – عائشة الحبيبة
٧ – عائشة المبرأة
٨ – عائشة العالمة
٩ – عائشة السياسية
١٠ – حفصة
١١ – أم المساكين وأم سلمة
١٢ – زينب بنت جحش
١٣ – صفية
١٤ – أم حبيبة
١٥ – جويرية وريحانة
١٦ – ميمونة ومارية

ثمن النسخة ٥ قروش

دار المعارف بمصر